الفصل الثامن

كتابة الحياة

« قراءة فى رواية " فى كل أسبوع يوم جمعة " لإبراهيم عبد المجيد »

١ـ توطئة :

قبل عام ١٩٩٧م لم تكن كلمة "مدونة blog" معروفة. وفى عام ١٩٩٩م عرفت مئات قليلة من المدونات. أما اليوم، فهناك ما يزيد عن ٢٣ مليون مدونة. والمدونة صحيفة عصرية منتظمة على الشبكة العنكبوتية. إنها خطاب إخباري newsletter يقرؤه الجمهور العام على موقع إليكترونى بعينه. المدونة تقرير أو تعليق على موضوعات ذات أهمية لدى المدون. والمدونات مكتوبة عادة، ولكنها قد تشتمل على صور وفيديو كليب ونحو ذلك. وعادة ما يدون القراء ردود أفعالهم أو تفاعلاتهم مع مدونة بعينها. يشهد الواقع فى كل أنحاء الدنيا أن بعض المدونين البارزين قد أثروا فى الحياة السياسية وفى ميادين أخرى من الحياة اليومية شأنهم شأن الصحفيين المحترفين والمتابعين والنقاد. للمدونات أنواع عدة، ولكن أهمها وأشيعها ما يسمى بالمدونات الشخصية Personal blogs. هذا النوع من المدونات هو أشبه شيء بالمذكرات اليومية والتجارب اليومية. مع مرور الوقت أدرك المدونون ما للكلمة فى المدونة من سلطة، وما للمدونات من أثر فى العلاج النفسى والتنفيس لما يعتمل فى الصدور، والإبقاء على التواصل مع الآخرين. لقد صارت المدونات ظاهرة فى الكتابة، بل لقد فرضت نفسها على الواقع الثقافى العربى المعاصر شأنها شأن تيارات وتوجهات سابقة ارتبطت فى نشأتها بجيل الشباب المهموم بالتغيير.

فى مناخ ثقافى اجتماعي سياسي علا فيه سقف الوعي وسلطة الفرد والكلمة صارت المدونات كتابة للحياة life writing. وكتابة الحياة هي ـ في جانب عظيم من جوانبها ـ كتابة لتجارب يومية. فى هذا المناخ ذاته انطلقت رواية إبراهيم عبد المجيد "في كل أسبوع يوم جمعة"(٢٠١٠م) وقد استلهمت نسق المدونات الشخصية استراتيجية سردية، كتبت لها الريادة حتى لتراها لا أصل لها إلا ذاتها. تلك رواية تكتب الحياة اليومية الشخصية والعامة لشريحة دالة من أبناء المجتمع فى العقد الأول من الألفية الثالثة. تنطلق الرواية بمبادرة إحدى شخصياتها؛ وهى روضة رياض، إلى افتتاح موقع إليكتروني على الشبكة العنكبوتية، وتدعو الآخرين إلى أن يكونوا أعضاء في هذا الموقع، وأن يكون لكل منهم صفحته الخاصة التي يحكي عليها تجاربه ورؤاه في الواقع

اليومي. ومن مجموع صفحات الأعضاء يتكون ما تسميه الرواية بالمدونة الجماعية. إنه موقع علامته الصراحة وغايته البوح بما يختص الذات فى علاقتها بالعالم والآخرين. وتقترح صاحبة الموقع أن يكون يوم الجمعة من كل أسبوع موعدا للدخول إلى الموقع بالكتابة أو إلى "غرفة الشات" للحوار وتبادل المعلومات وتقويم ممارسات الأعضاء الدورية على ذلك الموقع. من ثم اختارت الرواية عنوانا لها "فى كل أسبوع يوم جمعة". نستنتج مما سبق أمرين اثنين: أولهما أن صاحبة المبادرة امرأة، مما قد يعطي مؤشرا على تغيرات اجتماعية صارت فيها المرأة أقوى إقبالا على التواصل مع الآخرين وأقوى رغبة فى التأثير في الحياة العامة. والآخر أن الرواية ـ وقد اختارت ذلك العنوان ـ أرادت من البداية أن تؤكد أهمية البوح والتفاعل مع الآخرين، وأن يكون ذلك نشاطا دوريا منتظما كدورة يوم الجمعة من كل أسبوع. وأيام الأسبوع للعمل، ماعدا يوم الجمعة الذي هو عطلة الأسبوع. ولعل الرواية أرادت من وراء ذلك التنبيه إلى أن الفعل ينبغي له أن يسبق الكلام، وأن يكون الكلام وسيلة لتقويم الفعل.

على لسان روضة دعت الرواية إلى البوح. ولما كان البوح هو الجهر، وكان البوح هو النفس، فإن البوح يمكن أن يكشف سر العلاقة بين الإنسان والكلام الذي يبلغ الآخرين وتمتد وظيفته إلى التواصل والتفاعل الحى بين الناس. وفي الدعوة إلى البوح ما يجعل لها غاية نفسية؛ فالبوح علاج من التوتر والأرق والعقد. قالت روضة: "هذا الموقع مفتوح فكرته الصراحة.. اختبار قدرتنا على البوح، ليس له اتجاه سياسي. ولأني صاحبته فأرجو أن توافقني ـ أقصد من يدخل على الموقع ويريد أن يصبح عضوا فيه ـ ألا يزيد عددنا على خمسين، وبعد أن تتعمق معرفتنا ببعضنا سنرى ماذا يمكن أن نفعل نحن الخمسون، وإن كنت أتصور أن أهم إنجاز يمكن لهذا الموقع هو ـ كما قلت ـ البوح الذي له تأثيره الساحر في إنقاذ أصحابه من الأرق والتوتر والعقد" (الرواية ص ـ ٦). ومع قراءة الرواية سوف ندرك أن للبوح فيها مدارين اثنين: أحدهما حول انشغال الذات بذاتها؛ والآخر حول انشغال الذات بعالم الحياة اليومية وما يعتورها من وجوه النشاط الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والديني. مع هذين المدارين يظل للبوح فاعليته والحاجة إليه حتى يقع الإنسان موقعه الضروري من الحياة الإنسانية. "بوحوا

تصحوا" هي دعوة الرواية التي تصنع غرضها الإنجازي الأكبر، وهو غرض إنجازي نراه مساويا للوجود الإنساني الحقيقي في عالم الحياة اليومية.

من ناحية أخرى نرى روضة وقد ضمّنت دعوتها السابقة ملحوظة مهمة، هي أن "الموقع لن يقبل أعضاء من خارج البلاد، من الدول العربية والأجنبية" (الرواية ص٦). من مداخلات الأعضاء ما يدل على موافقتهم على ملحوظة روضة. إبراهيم إبراهيم مثلا يميل إلى هذا الرأي: "أنا سأجد دفئًا، خصوصا في هذه الأيام الشتوية بينكم. أجل، أن تتحدث مع فرنسي أو ياباني أو أميركي أو شخص من أي بلد غير بلدنا، يعني أن تتحدث في شئون عامة ودولية، هو عادة حديث بارد. كيف بالله تتحدث مع صديق ياباني عن الجلابيب القصيرة التي انتشرت فوق السراويل على أجساد الرجال، أو الزبيبة التي سقطت فجأة على جباه المصريين. لن يفهم شيئا. ربما يعتقد أنك تتحدث عن شخصيات مسرحية. أن تشرح له أن بعض رجال الدين وما أكثرهم في هذا الزمن، يعتبرون ذلك هو الدين، لن يفهم؛ موضوع الدين غير مطروح لديهم منذ مئات السنين يعرفون أن هناك إلها حقا، ليكن في السماء، وهم يعيشون على الأرض"(الرواية ١٤٥).

أرادت الرواية إذن تجنبا لحساسية التفاوت بين الثقافات والاهتمامات والأعراف الوطنية أن تجعل ذلك كله مقصورا على أعضاء مصريين. ليقل كل ما يشاء، فالآخرون من غير المصريين لن يضرهم شيء ولن يعنيهم شيء أيضا. إبراهيم إبراهيم الذي انحاز إلى رأي روضة يعمل أستاذا للعلوم السياسية؛ أي أنه الأعلم من غيره بما ينبغي للناس أن يوجهوا إليه بوحهم. ونراه في كلامه السابق يضرب أمثلة على ذلك. هو يريد للبوح أن يكون أداة للتغيير، تغيير واقع الناس المعيشي إلى الأفضل. وهو تغيير ينبغي له أن يبدأ من الذات، حين يتأمل الإنسان سلوكه وأفكاره، حتى يبلغ العالم الخارجي الذي تظل الذات فيه طريقا لتغييره.

في سياق آخر تجعل الرواية من الدكتور إبراهيم إبراهيم الذي لم يدخر وسعا في نقد الآخرين وتوجيه اللوم إليهم على ما يبدون من نفاق، تجعل منه واحدا من هؤلاء أيضا. قال إبراهيم إبراهيم كلاما جميلا، ونقد نقدا وجيها، ولكنه قال ما لا يفعل، وسلك ما ينهى عن سلوكه: حاول إبراهيم إبراهيم إغواء زميلته المطلقة أكثر من مرة حتى

انفجرت فيه وتقدمت بشكوى إلى رئيس القسم، فلم يجد في التحقيق شيئا يدافع به عن نفسه إلا أن اتهم هذه الأستاذة بأنها عضو في حركة "كفاية" المناهضة لرئيس الجمهورية، وأنها كانت قبل ذلك في حزب التجمع الشيوعي. وكذلك عرف رئيس القسم أنه يحاول منذ وقت طويل الاقتراب من لجنة السياسات، وأن هجومه الدائم على الجماعات الدينية ليس لعلمه وثقافته فقط، بل هي طريقة لفتح الطريق (الرواية ص١٩٧ ـ ١٩٩). يعني ما سبق أن من أسئلة الرواية الكبرى: تأمل نفسك جيدا، وقبل أن تدين الآخر، انظر إلى ذاتك، إنها أيضا مدينة! لعل في ذلك ما يذكرنا بسؤال الفيلسوف اليوناني القديم سقراط: كيف ينبغي للمرء أن يحيا؟ وهو السؤال الذي يوجب على جميع الناس أن يتأملوا أنفسهم. يجب أن نتأمل أنفسنا أفرادا تأملا عميقا على النحو الذي يساعدنا على أن نغيّرها من أجل حياتنا المشتركة.

٢ـ جدلية مضمرة :

مخاطرة كبرى أن تبنى رواية على مألوف. والمألوف في الرواية هو ما يقوله الناس في مداخلاتهم على ذلك الموقع أو في محاورات "غرفة الشات". تبث الميديا ليل نهار أخبارا وبرامج كلامية يشكو فيها الناس أوضاعهم المعيشية ويدينون الفساد. هذه الخيوط هي ذاتها التي تنسج منها الرواية خطابها. هنا نرى الوجه الأول لهذه الجدلية المضمرة: جدلية مضمرة بين المألوف في الحياة اليومية وما ينبغي له أن يكون جديدًا في خطاب روائي إبداعي. لكن الرواية ليست مقالا في شكوى الأوضاع. للرواية ما لها من تقنيات المفاجأة. متعة المفاجأة من عنوان للرواية مثير للتساؤل على رغم بداهته: " في كل أسبوع يوم جمعة" عنوان يبنى على أعلى درجات البداهة، لكن فضّ بداهته بالرواية كلها. صفحة أولى بالرواية مألوفة في غير الرواية. رواية في وحدات ثلاث: وحدة شخصيات تكتب عن نفسها والعالم، ووحدة شخصيات تتكلم عن نفسها والعالم، ووحدة راو يحكي عليما بجميع الشخصيات. حياة كاملة على الورق، تنتقل فيها من مكان إلى مكان، ومن حدث إلى حدث. ملحق على نسق التدوين الإليكتروني تستوفي به الرواية مصائر شخصيات بين باق بالموقع، ومنسحب منه، وقتيل كان عضوا فيه.

وجه آخر للجدلية المضمرة يرتبط بما سبق، هو الجدل بين ما تبثه الميديا القومية عن منجزات اقتصادية وسياسية تاريخية وبين شكايات واقعية يومية لا تحصى: سوء

معاملة رجال الشرطة لأبناء الشعب، يعتدون على المحامين، ويضربون أحد القضاة في الشارع بالأحذية، ويعذبون أحد سائقي الميكروباص وهو عماد الكبير، ويضعون العصا في مؤخرته وتصويره بالموبايل، والمبيدات المسرطنة التي دخلت البلاد فسرطنت منتجاتنا الزراعية، واللحوم المحفوظة التي هي في الأصل لحوم حيوانات نافقة كالحمير والكلاب والقطط، وأساتذة الجامعات الذين يقتربون من السلطة زلفى، وشوارع المدينة التي يختلط فيها المشاة بالسيارات، والمياه التي تنقطع عن الناس في هبة النيل، ومرشحو مجلس الشعب الذين يشترون أصوات بعض الناخبين بالسكر والزيت والفياجرا! هي إذن جدلية بين خارج النص وداخله، جدلية تجعل من الرواية حوارا ساخنا بين ما تقوله السلطة وما يعيشه الناس.

٣ـ أحلام اضطرارية :

شخصيات الرواية نماذج بشرية ممثلة لشرائح من المواطنين العاديين من سائق الميكروباص حتى أستاذ الجامعة. معظم هذه الشخصيات بدت بعزيمة المطالبة بإصلاحات اجتماعية واقتصادية وسياسية، أو بدت بالأمل في تحقيقها على الأقل. ولما كانت هذه الرواية قد كتبت صفحاتها بين الناس، فمن الناس من قنط من رحمة الواقع وتغييره فاستعان عليه بالحلم. الاستعانة على الواقع بالدخول في الحلم هي في حدها الأدنى علامة على العلاقة المتوترة بين الإنسان وواقعه اليومي. أحلام عبد الله في هذه الرواية تلعب دور تمثيل هذه العلاقة على خير وجه. لأحلام عبد الله طموحات صغيرة مهما عظمت، يسيرة مهما عسرت، محدودة بنطاق ضيق مهما بدت واسعة. أحلام عبد الله ضاقت ذرعا واستشعرت عجزها عن تحقيق شيء من طموحاتها في ذلك الواقع فاستعانت عليه بالحلم.

هي إذن أحلام اضطرارية لم تر أحلام عبد الله بيديها لمواجهة الواقع سواها. أحلام عبد الله امرأة متزوجة وتعمل بوزارة الري ولديها أولاد، لكنها تعاني كالآخرين ما في ذلك الواقع من ضيق العيش. عجزت أحلام وزوجها عن تدبير احتياجات الأبناء فأمراهم بالحلم.

"روشتة مجرَّبة" لأن والدها تداوى بها من ضغط الواقع ذات يوم. تقول أحلام في جزء من صفحتها على الموقع: "صحيح أن البوح لبعضنا سيساعدنا على الراحة النفسية لكني أحب أن أقدم لكم روشتة لا تخيب أبدا، روشتة استخدمها أبي فعاش سعيدا، واستخدمتها أنا فعشت سعيدة، وفيها حلّ لكل المشاكل مهما كانت شديدة... زوجي مثل أبي يرى أن الأحلام تحقق للإنسان ما يريد فتستمر حياته بلا ألم. لقد سمّاني أبي أحلام لهذا السبب.

العريس وأهله فقراء يسكنون في شارع جزيرة بدران، وأبي قال لي "وماله امشي في الشارع واحلمي إنك تمشي في الدقي". الأحلام هي التي أعطت أبي القوة على الاستمرار، فبها تحمّل التعذيب في المعتقلات، هكذا.

كان يحكي. حين يتعرض للتعذيب بالشوم أو الكرابيج كان يشطح بعيدا بذهنه ويحلم بنفسه طائرا فوق السحاب، وكان يطير فعلا، ولا يشعر بأي ضرب، وعندما يمنعون عنهم الأكل كان يحلم بالخبز .

وفي إحدى المرات منعوا عنهم الأكل أسبوعا كاملا فرأى في الحلم رغيف عيش يفترش الصحراء الشرقية كلها حيث يقع المعتقل "حلم عِنْد" هكذا قال... وكثيرا ما أسرف في الأحلام فرأى حراس السجن نساء جميلات... باختصار جعل أبي الحلم طريقته للحياة... الأسعار حولنا ترتفع كل يوم، فكان أبي يضع طبق الفول بيننا ويقول: "تخيلوا إنه لحمة"... كان زوجي مثل أبي... يرى في الأحلام حلا لكل مشاكلنا... عشت مع زوجي مقتنعة بالأحلام. كيف لا أقتنع وقد عشت عليها... صار لدينا ولد في الجامعة الآن وبنت في الجامعة أيضا وأخرى في الثانوية العامة. تغيَّرت الحياة حولنا، وازدادت الأسعار ومظاهر الفشخرة فدخلنا نحن في الأحلام بقوة. علمنا أبناءنا أن يكونوا كذلك.

أصبحت أنا مثل أبي وأمي، مؤمنة من زمان بقدرة الأحلام على إنقاذنا نحن الفقراء والمرضى والمقهورين... أبنائي يفعلون مثلى ومثل زوجى... يقولون عن الفول إنه لحم، والطماطم تفاح، والليمون برتقال وملابس وكالة البلح إنها من مول سيتي ستار ويضحكون ضحكات مبهجة والحياة تمضي" (الرواية ص٢٩٣ ـ ٣٠٠). الحلم هو الحل

من وجهة نظر أحلام عبد الله، لكن اليقين أنها تدرك في قرارة نفسها أنه حلم كاذب كالحمل الكاذب لا يلد حياة إنسانية حقيقية.

استوقفت صفحة أحلام عبد الله شخصيات أخرى بالرواية. وقفت مريم مراد الصحفية من الحلم أداة لمواجهة الواقع موقفا مختلفا. ترى مريم مراد أن الأحلام حل عبقري، ولكنه حل رومانسي. أما الحل الواقعي، فإنها تراه في القوة.

لقد دوّنت أحلام عبد الله على صفحتها أن الحلم هو الحل، وأن أبناءها صاروا يرون ما ترى. لكنها ـ في محاورة على غرفة الشات مع أعضاء الموقع ـ قالت كلاما يبرهن على أنه حلم كاذب، وأن أبناءها كذبوا، فصوروا الأمر على غير حقيقته. حقيقة الأمر أن أبناءها من جيل آخر، جيل لا يرى الأحلام حلا ناجعا لمعضلة التطلعات والاحتياجات. قالت أحلام في غرفة الشات كلاما أثار ريبة الأعضاء في سلوك أبنائها، وهي ريبة سوف يراها القارىء من وجه آخر ريبة في قدرة الحلم على مواجهة سلطة الواقع :

أحلام: أنا أحلام. ماحدّش سأل عليا ليه ماحدّش قرأ صفحتى؟

سامية جمال: انتي دخلتي؟

أحلام: أيوه.

سامية جمال: وخلفتي.

"ضحك شديد"

د. أمينة: سامية النهاردة اكسبريس.

سامية: فرحانة مع إني مارحتش اسكندرية على فكرة قريت صفحتك يا أحلام حلوة قوي ماتزعليش من هزاري.

د.أمينة: أنا كمان قريتها. بس طول الأسبوع بافكر في مريم. صفحتك جميلة قوي يا أحلام.

مريم: وأنا كمان. هي الأحلام حل عبقري. بس رومانسية. الواحد لازم ياخد الدنيا بالقوة.

أحلام: بس أنا عندي مشكلة. امبارح لقيت بنتي اللي في الجامعة لابسة تايير جديد غالي قوي وماسكة موبايل فخم قوي باقول لها منين دول قالت لي دول عندي من الأول. قلت لها دول غاليين. قالت ياماما دا لبسي من الأول ودا الموبايل بتاعي اللي اشتريته قديم بمتين جنيه انتي بس اللي بتحلمي.

د. أمينة: حد غيرك شافها؟

أحلام: أخوها. باكلمه لقيته لابس بدلة جديدة غالية قوي ومعاه موبايل أحسن من بتاع أخته. باقول منين الحاجات الجديدة الغالية دي قال يا ماما دي الحاجات القديمة اللي عندي وانتي بتحلمي ونزل سابنا. بصّيت عليه من البلكونة لقيته ركب عربية فخمة مع واحدة ست عجوزة ولما قلت لأخته مين اللي ركب معاها أخوكي دي قالت ياماما أخويا شايفاه ماشي على رجليه. انتي بسّ اللي بتحلمي.

"ضحك جماعي".

مريم: سألتي باباهم يمكن ادّاهم فلوس؟

أحلام: سألته: قال لي تلاقيهم حوّشوا من مصروفهم. مع إنه بيدي كل واحد اتنين جنيه في اليوم بالعافية . يعني يا دوبك المواصلات.

رنا: يا خوفي لاتكون بنتك اللي في الثانوي كمان كده!

أحلام: لأ. بس هي زعلانة وبتبصّ لأختها وأخوها بغيظ.

صابر عيد: على أي حال بكره ح يبان انتي اللي بتحلمي ولا هما (الرواية ص٣٤٩ ـ ٣٥١).

٤ـ لعبة التشخيص :

والتشخيص characterization استراتيجية تشكيل الشخصية بواسطة الخطاب السردي. لعبة التشخيص هي لعبة المواءمة الاستراتيجية بين الأدوار وأغراض الخطاب الإنجازية. معلوم أن النظام يخلق الشكل. في هذه الرواية خلق النظام وهو هنا بناء الرواية استراتيجيا على نسق المدونات، خلق شكلا متميزا نرى فيه للمرة الأولى في رواية

عربية شخصيات بسيماها مرسومة على الصفحات، ومتفاعلة بالتدوينات والحوارات المنطوقة الحية عبر وسيط أليكتروني.

ولا تكتمل لعبة التشخيص في الرواية إلا بالدور التقليدي الذي يلعبه الراوي العليم. تتحرك لعبة التشخيص إذن على ثلاثة محاور رئيسة هي: التفاعلات المكتوبة بين الشخصيات، والتفاعلات المنطوقة داخل غرفة الشات، والراوي العليم الذي يقود دفة السرد. نلحظ هنا أن الراوي لم ينفصل عن نسق السرد في المدونات. جمع الراوي بين سرد الهموم الاجتماعية العامة والشئون الشخصية شديدة الخصوصية في آن معا. يقف الراوي مثلا على مظاهر القهر الذي تعانيه روضة رياض بسبب الفقر في جانب، كما يقف في جانب آخر على مظاهر الترف واللامبالاة التي أطاحت بحياة سامية جمال. حياة روضة رياض الخاصة انعكاس لظروف اجتماعية واقتصادية صعبة. روضة رياض الفقيرة لم يغنها الزواج بعماد ابن سيادة اللواء المختل عقليا والعاجز جنسيا، فانساقت وراء رغبات الجسد. يعرف الراوي دوره جيدا. يرى الراوي الأحداث والمواقف بعين الحاضر، كما يراها بعين المستقبل في آن معا. كلام الشخصيات عن ذاتها لا ينفصل هو الآخر عن رؤية الراوي. الرواية ـ في لعبة التشخيص ـ معنية أيضا بإظهار العلاقة بين الوعي والفعل. تظهر معظم الشخصيات وعيا مناسبا بالواقع الاجتماعي العام، ولكنها لا تمارس الفعل الإيجابي للإصلاح بدرجة واحدة.

من ناحية أخرى، تمارس لعبة التشخيص نشاطها على مبدأ التوازن أو المسئولية المشتركة. النظام السياسي لا يستطيع وحده أن يحقق رغبات أفراد المجتمع مهما بلغت إمكانياته واستراتيجياته من كفاءة وقوة. بعض الأفراد غير مؤتمنين على أدوارهم ومواقعهم الاجتماعية. الرقابة الذاتية على الأفعال والتصرفات والسلوكيات تلعب بها الظروف والأحوال. ولا يطير طائر الإصلاح والتغيير إلا بجناحين.

لقد انخرطت شخصيات عدة في الواقع على نحو أو آخر. ولكن شخصيات أخرى حالت السلبية بينها وبين الفهم الحقيقي للواقع. انقلب زاهر على ـ بعد تجربة عاطفية فاشلة ـ على عقبيه، فصارت حياته بحثا عن المتعة في الجنس ورحلات الصيد التي كان يمضيها بين الصمت والفراغ، ولا يقدم إجابة عن أسئلة الدنيا الغامضة. أما مختار

كحيل، فقد كانت له نظرته المتفلسفة إلى الحياة والأحداث. اعتاد مختار كحيل أن يرى الحياة والأحداث حوله بهذه الرؤية المتفلسفة الخاصة. وظلت عبارات مثل: "العدم أصل الوجود" (الرواية ص٢٠٩) و"الحضور الحقيقي في الغياب"(الرواية ص٢٣٨)، ظلت جدارا عازلا بينه وبين واقع الناس. وكذلك الحال مع أحمد بن علي الذي مافتىء ينصح الناس بالصبر وعدم الانشغال بمشاغل دنيا فانية: "لقد دخلت على موقعكم هذا عشر مرات وترددت في الانضمام عشر مرات؛ لأني لا أجد فيه إشارة من بعيد أو قريب إلى الإيمان بالله ورسله وكتبه. كل ما كتبتموه مشاغل في دنيا فانية أقرب إلى الكفر من أي معنى آخر. لقد رأيت أنكم فاقدو القدرة على الصبر على المكاره، وتجرّأ البعض منكم فعاب على المسلمين حياتهم، مثل من يسمى نفسه الدكتور إبراهيم إبراهيم ولا يكتب إبراهيم بن إبراهيم. إذا لم يكن ابن إبراهيم فابن من يكون؟... الأخ تامر الذي خرج من الموقع، عرفت ذلك حين قرأت صفحته بعد صلاة الجمعة، أنفق سنتين الآن يبحث عن حقه عند ضابط ظالم ولو ألقى حموله على الله لاستراح... أنا في كل شتاء، أيام المطر، أجد نفسي محرومًا من النزول إلى صلاة الفجر بسبب المطر الذي يحول شوارع الزاوية الحمراء حيث أسكن إلى برك وطين، لكن صبري لا ينفد، وإن كانت الدولة مقصرة في إصلاح الشوارع، فالله سيسكنني يوما في موضع أفضل وإن تأخر ذلك فسيسكنني فسيح جناته... يا إخوان اخرجوا إلى صلاة الفجر. ستعرفون كيف بعدها تمضون أيامكم، عمركم كله، غافلين عن الزحام والضوضاء والفوضى والظلم وخبث الكافرين"(الرواية ص٢٢٤ ـ ٢٢٧). يظهر أحمد بن علي سلوكا مترددا على رغم يقينه بأن غاية الموقع هي التواصل الاجتماعي وتبادل الخبرات وتأمل حياتنا الخاصة والعامة. وهو يعي واقعه أو شيئا منه على نحو ما نرى في كلامه عن الزحام والفوضى والظلم وتقصير الدولة في توفير الخدمات المدنية، ولكنه لا يعي ـ فيما يبدو ـ أن الدعوة الكاملة تقتضي أن يكون الدين للحياة أيضا؛ فالأمانة والصدق وحسن المعاملة والسهر على مصالح الناس ـ وهي مما يشكوه واقع الحياة اليومية اليوم ـ طريق إلى الحياة الآخرة. ومما ينبغي الإشارة إليه الآن أن قوة استلهام الكاتب روح نسق المدونات قد أغنت عن بناء استراتيجية التشخيص على أساس قاعدة بيانات تفصيلية عن المدونات

من حيث دوافع التدوين، وأهم الموضوعات التي يكتب فيها المدونون، ونسب المدونين المئوية من حيث النوع والمستوى التعليمي.

كانت المفاجأة أن البيانات متشابهة إلى حد بعيد بين المدونات الحقيقية والمدونة الجماعية التي صنعتها الرواية وأقامت عليها صرحها السردي:

١ــ احتلت الموضوعات الشخصية المرتبة الأولى بين الموضوعات التي تناولتها شخصيات الرواية.

٢ـ قام عدد كبير من أعضاء الموقع بتكوين صداقات جديدة مع الآخرين أثمرت أحيانا مساعدات يقدمها بعضهم للبعض الآخر، على نحو ما رأينا من مساعدة مريم مراد الصحفية للشخصية المسماة "لاشيء"، والذي فقد ولديه وقد فكرا في السفر إلى دولة أجنبية بحرًا)، بل أثمرت زواجا مثل زواج باسم السكري بسعاد سعيد.

٣ـ كانت الرغبة في البوح أو التواصل بين الأصدقاء، والتعبير عن الآراء، وتبادل الخبرات، في مقدمة دوافع التدوين عند أعضاء الموقع.

٤ـ فاقت النسبة المئوية لأعضاء الموقع من المؤهلين علميا غيرها من غير المؤهلين، فضلا عن أن معظمهم من جيل الشباب.

٥ـ في موضوعات الحياة الشخصية، بدت الشخصيات النسائية أكثر نقاشا من الرجال للحياة الفردية Single life والحياة العائلية.

المؤشرات السابقة توفرت للرواية أو للمدونة الجماعية التي أنتجها أعضاء الموقع والتي قام بها خطاب الرواية الخاص. هذه المؤشرات تشبه ـ على الإجمال ـ ماهية المدونات الحقيقية التي تعرضها علينا دراسات عربية وغربية عن التدوين والمدونين في مصر. نرى في ذلك ـ كما قلنا ـ قوة استلهام الكاتب روح النسق التدويني الذي اعتمدته الرواية استراتيجية سردية لها.

٥ ـ شفرة لغوية طازجة :

نعم، فالشفرة اللغوية في هذه الرواية هي ابنة لحظتها ونتاج زمانها ومكانها وأحداثها ومواقفها وتفاعلات شخصياتها تدوينا وحوارا. موقع على الشبكة العنكبوتية فجرّ ينابيع البوح عن الذات والعالم، ولكنه فجّرها في حقل معجم الشبكة العنكبوتية ذاتها تارة وفي حقل سياق خطاب الرواية تارة أخرى. ولأن الطريق إلى كلا الحقلين هو

عالم الحياة اليومية، فقد سارت الشفرة اللغوية في الرواية على هذا النسق، لا تغادره حتى مع أعلى الشخصيات لغة، وهي أحمد بن علي رجل الدين. سار أحمد بن عليّ على نسق لغة الدين التي يستعملها عموم الدعاة في هذه الأيام، وهي اللغة الجارية على ألسنة المثقفين. قد نرى فيها بقايا حذلقة، ولكنها لا تخلو غالبا من تبسُّط تمازجه أحيانا خفة الظل، بل إننا لنرى أحمد بن علي في الحوارات المباشرة بين أعضاء الموقع (انظر مثلا غرفة الشات ٣) يستحسن نكاتا ويبادلهم النكات:

صابر عيد: طيب يا جماعة بمناسبة الست أحلام، واحد بيسأل واحد شيخ بيقول له يا مولانا أنا بالليل وأنا نايم حلمت إني ماسك بإيدي "ـــ" ـ لا مؤاخذة معلهش ـ شكيرا. حرام ولا حلال؟. الشيخ قال له هات يا ابني إيدك أما أبوسها.

"ضحك شديد جدا".

مختار كحيل: إيه رأي مولانا أحمد بن علي؟

"صمت" للحظة.

أحمد بن علي: والله ليس على المؤمن في الحلم من حرج.

"ضحك شديد".

مختار كحيل: ما تقول لنا نكتة انت بأة.

أحمد بن علي: أنا أستغفر الله.

مختار كحيل: يا عم قولها وتوب بعد كده.

مافيهاش حاجة لما تسعد أصحابك.

"صمت" للحظات

أحمد بن علي: الأمر لله: واحد بيسأل واحد شيخ بيقول له يا مولانا هو اللي بيتكلم انجليزي حرام؟ قال له بيس!

"ضحك شديد جدا"

صابر عيد: الله الله يا مولانا . كمان واحدة والنبي .

سامية: سايقة عليك النبي يا شيخ ماتكسفنا.

أحمد بن علي: انتي حتسوقي عليا محمد بن عبد الله.

سامية: حقك عليا. سايقة عليك أي حد بتحبه.

أحمد بن علي: حيث كده ماشي. بيقول لك عملوا انتخابات في أمريكا بين مرشح الحزب الجمهوري والحزب الديمقراطي طلبوا لجنة إشراف محايدة على الانتخابات. خدوها من مصر. نجح مرشح الحزب الوطني"(الرواية ٣٥٥ ـ ٣٥٦).

أحمد بن علي بين الناس وبلغته الدارجة غيره بعيدا عنهم وبلغته المعلّبة. يعني ذلك أمرين: أحدهما أن لغة الدعوة ينبغي لها أن تكون لغة العقل والوجدان معا، لغة الناس التي يتداولونها في مخاطباتهم اليومية. والآخر أن الصلة وثيقة بين الشفرة اللغوية وروح صاحبها، مما يعني أن شخصية الداعية من الأهمية بمكان في إنجاح خطابه الدعوى.

لقد وعت الرواية أنها تكتب الحياة، وأن كتابة الحياة لا تتحقق إلا بلغتها. الرواية التي استلهمت التدوينات استراتيجية سردية، وغرفة الشات نسقا حواريا، حاكت كليهما على منوال نسقهما اللغوي وما لهذا النسق من سمات. يعني هذا أن الرواية قد تبنّت تلك الاستراتيجية شكلا ومضمونا. ولعل من أهم تلك السمات ما يلي:

١ـ استعمال الفصحي غالبا، ولكن كثيرا ما يخلط أحد أعضاء الموقع أو الراوي ـ شأنهما شأن المدونين الحقيقيين ـ بين الفصحى والعامية، ويخرج من إحداهما إلى الأخرى خروجا حرا.

٢ـ الحرص على الوضوح، سواء أكان ذلك باستعمال المفردات والبنى الصرفية المألوفة أم بتوجيه نحو النص إلى استعمال وسائل شتى لزيادة قوة السبك، لاسيما ما ارتبط منها بالإحالة والاستبدال والتكرار المعجمى. في مواضع عدة من الرواية نرى النسق التركيبي التالي:

ـ"لأنه، التمر، سنة عن النبي الكريم" (الرواية ص٣٧).

ـ"تذكرت أنها، أم خالد، كانت كثيرا ما تقابلني على السلم أمام الباب" (الرواية ص٢٤):

ـ"هي متأكدة من ذلك، روضة رياض، صاحبة الجروب"(الرواية ص٤٩).

وربما تجاوز التكرار وظيفته النحوية النصية إلى الوظيفة البلاغية التي يعزز بها المتكلم غرضه. تدون أمينة أمين على صفحتها قصة حبها الضائع لسعيد علام حتى تقرأها مريم مراد التي مرت بالتجربة ذاتها، فتدرك أن غيرها من بنات حواء عانين ما تعاني. تقول أمينة: "لكني كنت أحبه. عشرون عاما مضت الآن يا مريم على يوم هروبه. عشرون عاما مضت الآن على يوم قطعت شرايين يدى. وعشرون عاما على شفائي من الموت ودخولي المصحة النفسية وخروجي. وعشرون عاما على موت أبي! كلها تواريخ بدأت في يوم واحد منذ عشرين عاما رغم أنها لم تحدث في يوم واحد. كيف حدث ذلك لي. هل يحدث لكل النساء. أنت أصغر مني فلا تنتظري عشرين عاما تسألين نفسك ما الذي فعلته ليخذلني كل هذا الخذلان" (الرواية ص٢٥٥ ـ ٢٥٦). في الإلحاح بالتكرار تعزيز الشعور بطول مدة معانتها طولا يفوق كل احتمال لامرأة أحبت فتعذبت بحبها. والغرض من ذلك هو تخفيف وطأة الشعور بعذاب مماثل تعانيه مريم مراد.

٣ـ والرواية في استلهامها نسق المدونات الحقيقية اللغوي، تدرك أن كتابات معظم المدونين تدور حول ملاحظات عن أمور ذات طابع يومي. ولا ريب أن ذلك مما يساعد على ترهين لحظة القص، حتى لنجد أن وقوع كلمة مثل "الآن" في عشرات المواضع من الرواية كان من باب مطابقة المقال لمقتضى الحال. الحاضر في الرواية هو الزمن المهيمن على الأحداث والمتغيرات والمواقف.

وقد بلغ أمر "الآن" في هذه الرواية أن وقعت في سياقات لغوية لا حاجة لها بها؛ وذلك أنها قاطعة الدلالة على الآنية: يقول الراوي مثلا عن زاهر على أحد أعضاء الجروب: "أرسل بياناته مؤجلا الكتابة عن نفسه. أغمض عينيه مندهشا من قرار روضة رياض أن يكون قبول الأعضاء يوم الجمعة فقط. هل حقا لأنه يوم سعدها، أم لأنه يوم إجازة؟ لابد أنه يوم سعدها؛ لأنه لا أحد يعمل في البلاد الآن.

ابتسم ساخرا ومطّ شفتيه وفكر أنها قد تكون لعبة، وأن صاحبة الموقع سيدة تلهو، وأن الأمر هكذا لن يستمر. لكنه عرف بعد لحظات أن أربعة آخرين انضموا إلى الموقع،

وأن صاحبة المدونة قبلتهم على الفور، كما قبلته أيضا... ماذا يكتب إذا في صفحته؟ لاشيء الآن. أرسل إليها مباشرة إيميلا: ما رأيك أن نشيّت قليلا، مادمت قبلت أن أكون عضوا بالموقع؟" (الرواية ص٧ ـ ٨). استعمال "الآن" في الموضعين بالنص السابق ليس للمقتضى نفسه. استعمال "الآن" في الموضع الأول لأمن الالتباس بتقييد النفي، ولو حذفت "الآن" لصار النفي مطلقا، وهو ما لا يريده سياق الحال في خطاب الرواية. أما الموضع الآخر، فإن سياق الكلام يغنى عن استعمالها فيه. وما استعمالها هنا إلا توكيد راهنية لحظة القص.

فضلا عن الواقعية الاجتماعية التي جعلت من استخدام الرواية كلمات جارية اليوم على ألسنة العامة مثل: نفّض، وكبّر، ومُزّة، ونحوها أمرا طبيعيا، فإننا نرى من ناحية أخرى أن الرواية قد انفتحت على شفرة التواصل عبر الشبكة العنكبوتية تدوينا وحوارا، فانفتحت لغتها على عشرات المفردات والأساليب والعبارات الاصطلاحية المعروفة في مجال الممارسات على تلك الشبكة، سواء في ذلك ما عرّب من هذه المفردات والأساليب والعبارات أم ما لم تجد شخصيات الرواية بُدًا من استعماله بلغته الإنجليزية.

وهنا لم يخل الأمر من طرافة المفارقات، كأن يلوك خميس جمعة مثلا، وهو سائق ميكروباص، بعض مفردات التواصل الحاسوبي وعباراته بالإنجليزية. إن عبارات مثل: "كليك على send، لكن إصبعه توقف أعلى الماوس"(الرواية ص٣٣٨) أو "سيكون الشات اليوم ساخنا"(الرواية ٣٤٤) أو "دي مش أخلاق البلوجرز. بلوجرز يعني شفافية"(الرواية ص٢٣٦) أو "نحن لسنا موقعا إباحيا don't care" (الرواية ص١٦٨) هي عبارات لا عهد للرواية بها من قبل، ولكننا نراها الآن وقد انفتحت لها لغة الرواية.

في هذه الرواية أرهف إبراهيم عبد المجيد السمع إلى كلام الناس في تدويناتهم وحواراتهم وقرأ الحاضر المتوتر قراءة من يعي بعمق ما يؤول إليه في المستقبل. ولعل فيما رأيناه من الدور العظيم الذي لعبته المدونات في التحضير الجماهيري النفسي والعقلي لثورة الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١م ما يبرهن على ذلك. وللقارىء أن يعجب

لهذا التوافق بين يوم الجمعة في عنوان تلك الرواية ويوم الجمعة الذي ارتبطت به أقوى فعاليات تلك الثورة كجمعة الغضب، فجمعة الرحيل، فجمعة التحدي، فجمعة النصر .... إلخ .

***